

صناعة الوعي المواطني في كتابات جمعية العلماء قراءة في فكر ابن باديس والإبراهيمي وأبي اليقظان

Citizen Awareness Making in the Scholars Society's Writings
Readings through Ibn Badis, Al-Ibrahimi and Abi Al-Yaqzan's
Thoughts.

أ.د/ يحيى بن بهون حاج امحمد
baamarayousef@gmail.com

د. يوسف باعمارة
yahiabenbouhoun@yahoo.fr

مخبر التراث الثقافي واللغوي والأدبي بالجنوب الجزائري - جامعة غرداية (الجزائر)

تاريخ القبول: 2022/01/13

تاريخ الإرسال: 2021/12/06

ملخص:

تدُلُّ المواطنة على الانتماء إلى الوطن فكراً وروحاً وجغرافياً؛ وكل ما يتعلّق بالنُظم الاجتماعية والدّينية والثوابت الوطنية، وقد نضج هذا المفهوم بقوة غداة سطوة الاحتلال الفرنسي واستعمار له أرض الجزائر، فضلاً عن تقويضه للمقومات الأصيلة وسعيه لفرنسة الجزائر وتنصيرها وتحييدها من هويتها، ودعوة أزماله إلى الاندماج معها باعتبار الجزائر جزءاً لا يتجزأ من فرنسا، وهو الشيء الذي دفع بجمعية العلماء إلى الالتفاف صفوفاً على جمع الكلمة؛ أولاً بين علماء الجزائر من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه؛ لأجل بثّ الوعي الدّيني ابتداءً والاجتماعي وصولاً إلى الوطني حينما كان المستعمر يقوم بدور الاستيلاء الحضاري، علاوةً على تفنيد المغالطات والمزاعم التاريخية المزوّقة التي تجعل من شعب عريق أصيل أن يرتبط باستعمار غريب عن الوطن في شتّى المجالات، فهو غريب الفكر واللغة والدّين والمجتمع؛ ولأجل ذلك قامت جمعية العلماء بمهمّة صناعة الوعي المواطني وبثّه في صفوف الشعب الجزائري بعدّة طرائق وأساليب فعّالة كانت سبباً في تأسيس نهضة ثوريّة ستتفجّر لاحقاً.

الكلمات المفتاحية: المواطنة، الوعي، جمعية العلماء، الأدب، الفكر، النهضة.

Abstract:

Citizenship denotes belonging to a homeland in thought, spirit, geography and everything related to social and religious systems and national constants. Algeria is an integral part of France, this is what pushed up the Muslim Scholars Society to gather in order to spread first religious then the social and the national awareness when the colonizer was forcing civilizational alienation and to combat the historical allegations that might make an ancient people to be associated with a colonialism alien to homeland, thoughts, language, religion and to society. For this reason, the Muslim Scholars Society carried out the task of creating citizen awareness and spreading it among the Algerian people in several effective ways and methods that were the reason for the establishment of a revolutionary renaissance that would explode later.

keywords: citizenship, awareness, the Scholars Society, literature, thought, renaissance.

مقدّمة:

تحتاج صناعة الوعي عند الإنسان حضوراً مركزاً لعقله وإدراكه، وشعوره بأهميّة قيمه وثوابته لكونه عنصراً أساسياً في بناء شخصية الإنسان من عدّة نواحٍ وجوديّة؛ يُثبت من خلاله وجوده الرّوحي والاجتماعي والفكري والثقافي من عدمه، وإذا توغلنا في تاريخ الجزائر والحركة الوطنية فإننا سنجدُ مجهودات جبّارة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين لا يُنكرها إلا جاحد ولا يُفندّها إلا مُكابّر، فلها من الأعمال الجليلة ما تقرُّ به عين الودود وتُفقأ عين الحسود، ومن ذلك بناء الفكر التحرّري، ومقاومة الاحتلال بشي الأساليب، والحفاظ على الهوية الوطنية، وصناعة الوعي بمختلف تفرعاته: الوعي الديني، الوعي السياسي الوعي الاجتماعي، الوعي الوطني، الوعي التاريخي، الوعي الجغرافي، الوعي التربوي، ولكل هذه الأنواع موضوعات لا يكفي المقام ولا المقال لسردها وتوصيفها وعرضها؛ ولكنّها تبقى بصمة راسخة في تاريخها وبفضلها تركت للمجتمع الجزائري صمّام أمانٍ أمام مختلف السّياسات الاستعمارية؛ السّاعية إلى تفكيك الشّعب الجزائري أعراشاً وقبائل متصارعة في القضايا الاتنيّة؛ لتجاهل القضية الرئيسة وهي اللّحمة الوطنية وقيم الانتماء إليها والالتفاف حول مصيرها المُشترك، ولأجل هذا الغرض تأسّست جمعية العلماء في 05 ماي 1931م

بنادي الترقّي بالجزائر؛ ردّاً على احتفالات الذكرى المئوية -التي أقامتها فرنسا بمناسبة وجودها بالجزائر مئة سنة⁽¹⁾- وبهدف إرساء الإسلام الصّحيح الذي لا تشوبه البدع والخرافات، والمحافظة على اللغة العربية لكون المُستعمر فرضَ لغته الفرنسية الغريبة عن أرض الجزائر ووضعها لغة رسمية، فضلاً عن الرّدّ على دُعاة الإدماج مع فرنسا والانسلاخ في مدنيّتها الزّائفة، وضمت بين جنباها خيرة علماء الجزائر ومشايخها نذكر منهم على سبيل المثال: عبد الحميد بن باديس، محمد البشير الإبراهيمي، مبارك الميلي، إبراهيم أبو اليقظان، الطيب العقبي، العربي التبسي⁽²⁾؛ وتعدّ أعمالهم الرائدة وغيرها خطوات ثابتة في صناعة الوعي الوطني؛ والتي سيتبلور لاحقاً بالالتحاق بالثورة التحريرية المُظفّرة والبلاء فيها بلاءً حسناً، وبالتالي فإنّ مفردات الكفاح والمقاومة والعزّة والشموخ هي من نتاج هذه التربية التي كانت تُصدّر عبر الصّحف المتنوعة والمنابر المسجديّة والنوادي الثقافية والمدارس التربوية ساعيةً من وراء ذلك إلى بلورة الوعي ونشره وترسيخه في قلوب النّاشئة وطلبة العلم من جهة؛ وعموم المجتمع وفئاته المختلفة من جهة أخرى، ولم تمرّ هذه المساعي الحثيثة بسلام، فقد دفعت جمعية العلماء ثمنها باهضاً بما تعرّضت له من صنوف التّعذيب والاعتقال والملاحقات ومحاولات الاغتيال لبعضهم؛ لاعتبارها مرجعية دينية للجزائريين؛ فعزّزتها قد يُزعزع إيمانهم ودينهم، وهذا لأنّ الاستعمار الفرنسي عمِل ما في وسعه لجرّ الجزائريين إلى المسيحيّة؛ وحتى تحويل بعض المساجد إلى كاتيدرائيات وكنائس؛ لزرع البلبلة في صفوفهم ودسّ السُّم في الدّسم فيها، إضافة إلى أنّها جمعت صفوف الجزائريين في شعارها المعروف: الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا.

وعلى ضوء هذه المقدّمة؛ يعرّ لنا أن نطرح بعض الإشكالات المهمّة فنقول: كيف أسهم الأدباء في جمعية العلماء في صناعة الوعي الوطني في ظلّ التضييق الاستعماري عليها؟ وما الوسائل والإجراءات والطرائق التي بذلها المشايخ الأدباء: ابن باديس، الإبراهيمي أبو اليقظان لتحقيق الوعي الوطني؟

ونكمش أهمية هذه الدّراسة في الغوص في مُنتجات جمعية العلماء ومُخرجاتهم الإبداعية والفكرية والثقافية التي بثّت البصيرة والرأي في قلوب النّاس، وصنعت فيهم الانتماء الدّيني والمجد الوطني، والاعتزاز اللّغوي العربي، وسبب اختيارنا للمشايخ الثلاثة

كعينة للدراسة؛ هو اعتبارهم خادمو الوعي في مناطق متعدّدة من القطر الوطني، فالشيخ عبد الحميد بن باديس (1889م- 1940م) كان رائد الإصلاح في قسنطينة؛ ومنها إلى الشرق الجزائري، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي (1889م- 1965م) انطلق من البرج وسطيف إلى وهران وتلمسان بالغرب الجزائري؛ وشكّل هنالك صحوة دينية وديناميكية فكرية توجت بتأسيس دار الحديث في تلمسان، ونشط الشيخ إبراهيم أبو اليقظان (1888م- 1973م) في الجزائر وأسّس صحفه المختلفة؛ وبعد أن ضايقه الاستعمار الفرنسي عاد إلى مسقط رأسه بوادي مزاب بالجنوب الجزائري؛ فواصل نشاطه الإصلاحي هنالك؛ وبالنظر إلى هذا التعدّد في نشاط هؤلاء العلماء نجد أنّ صحتهم عمّت جلّ الأقطار الوطنية: شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.

- ومن الأهداف التي سطرناها لتحقيقها في هذه الورقة البحثية ما يلي:
- إبراز الدور الفعّال لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تاريخ الحركة الوطنية.
- الإشادة بمجهودات العلماء المسلمين في صناعة الوعي المواطني.
- الوقوف في الأشكال الأدبية التي بوساطتها تمّت صناعة الوعي المواطني.
- الاعتزاز بالتاريخ الوطني، وتعزيز قيم الانتماء إلى المنظومة الجزائرية التحريرية.
- تحليلات الوعي المواطني في الإنتاج الأدبي والفكري والثقافي لجمعية العلماء.

1- مفهوم الوعي والمواطنة:

* الوعي لغةً:

وعى يعي وعياً، وعى الشيء: جمعه وحواه، وعى الحديث: قبله وتدبّره وحفظه، وعت الأذن: سمعت، وتقول العامة: وعى فلان: انتبه من نومه أو من غفلته، وعي العظم: انجبر بعد كسر، أوعى الكلام إيعاءً: حفظه وجمعه، استوعى الشيء أوعاه: أخذه كلّ، الواعي: والي اليتيم وحافظه، الوعي: الشعور الظاهر والعقل الظاهر، يُقال: مالي عنه وعي: أي بُدّ، الوعي: الحافظُ الفقيه، يُقال: هو أوعى من فلان؛ أي أحفظ وأفهم، وهو أوعى من نملة؛ أي: أجمع منها، واللاوعي: العقل الباطن أو الشعور الباطن⁽³⁾، وفي الحديث الشريف: "نصّر الله امرؤاً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها فربّ مُبلِّغ أوعى من سامع"⁽⁴⁾.

* الوعي اصطلاحاً:

- الوعي هو الفهم وسلامة الإدراك، ومعرفة الإنسان لنفسه، والمجتمع الذي يعيش فيه⁽⁵⁾.
- الوعي هو وعي أفراد المجتمع بشكل عام بمختلف القضايا التي ترتبط بحياتهم وواقعهم وتحدد ملامح مستقبلهم، والوعي أنواع منها: الوعي الثقافي والديني والاقتصادي والسياسي والقانوني والأخلاقي والوعي الصحي⁽⁶⁾.
- الوعي هو إدراكنا للواقع والأشياء؛ وبدونه يستحيل معرفة أي شيء؛ فالوعي هو الحدس الحاصل للفكر بخصوص حالاته وأفعاله⁽⁷⁾.

* المواطنة لغةً:

- المواطنة مصدر رباعي مشتق من فعل وطن على الأمر، وأضرمر أن يفعله معه، ومن مرادفاتهما: وطن يوطن بالمكان: أقام فيه، ووطن نفسه على الأمر: هيأها لفعله وحملها عليه، واستوطن البلد: اتخذ وطناً، وتوطنت نفسه على كذا: حملت عليه، والمواطنة منسوبة إلى الوطن وهو المنزل الذي يقيم فيه الإنسان والجمع أوطان، ويُقال وطن بالمكان، وأوطن به أي: أقام، وأوطنه اتخذهُ وطناً، وأوطن فلان أرض كذا، اتخذها محلاً ومسكناً⁽⁸⁾. وفي الحديث الشريف: "وأن يوطن الرجل المكان في المسجد كما يوطن البعير"⁽⁹⁾.

* المواطنة اصطلاحاً:

- المواطنة هي: شعور الفرد بالارتباط تجاه وطنه والانتساب إليه حباً وولاءً، متوحداً معه، ومنشغلاً ومهتماً بقضاياها، وملتزماً بالمعايير والقوانين والقيم الإيجابية التي تُعلي من شأنه وتنهض به، محافظاً على مصالحه وثرواته، مراعيًا الصالح العام، ومُسهِماً في الأعمال الجماعية، ومتفاعلاً مع الأغلبية، لا يتخلّى عنه خاصّة عند اشتداد الأزمات عليه⁽¹⁰⁾.
- المواطنة هي: علاقة الفرد بالدولة التي يعيش في كنفها ويكن لها ولاءً عملياً وولاءً وجدانياً مقابل ضمان الدولة لعدم المساس بكرامته الإنسانية وصيانتها لحقوقه الأساسية المتمثلة في حق العمل والانتخاب وحرية الاعتقاد الفكري والسياسي

وبالمقابل يُشارك الفرد في بناء دولته بدفع الضرائب وحماية بلاده بالدفاع السياسي والعسكري⁽¹¹⁾.

- المواطنة هي: إعطاء المواطن الشرعية القانونية في البلد الذي وُلد فيه، واكتسب جنسيته.

- الحق في الاستفادة من ما ترتبه عضوية تلك البلد لمواطنيها من امتيازات وحقوق، ومشاركة الفرد في أمور وطنه، وتحقيق الغاية المشتركة بين الدولة ومواطنيها، بما يُحقق التعاون والتكامل والعمل الجماعي المشترك⁽¹²⁾.

- تُعرّفها موسوعة الكتاب الدولي بأنها: عضوية كاملة في دولة أو في بعض وحدات الحكم، بحيث لا تُميز بين المواطن والجنسية مثلها، وتؤكد أنّ المواطنين لديهم بعض الحقوق، مثل حق التصويت وحق تولي المناصب العامة، وكذلك عليهم بعض الواجبات، مثل واجب دفع الضرائب والدفاع عن بلدهم⁽¹³⁾.

ومن خلال التعريفات السابقة يتبين لنا مفهوم الوعي المواطني؛ الذي يتعلّق بنشر الإدراك الاجتماعي، والاهتمام بمختلف القضايا؛ التي ترتبط بواقع الناس فتفتّق أفكارهم، وتصنع مستقبلهم، وترتبط ماضيهم بحاضرهم؛ في نسقٍ جغرافي مرتبط بالزّمان والمكان والفكر والقيم، واجتماعها يُشكّل انتماءً للوطن، واعتزازاً به وذوداً عن حياضه، وحفاظاً على ثرواته، وتعاوناً بين أبنائه، فيما يعود عليهم بالنفع على أنفسهم ووطنهم.

2- موضوعات الوعي المواطني:

تنوّعت الآليات والطرائق في صناعة الوعي المواطني عند مشايخ جمعية العلماء، فكان الخطاب المسجدي والدّيني إحدى تلك الوسائل؛ كما كانت القصائد الشعرية، والمقالات الصحفية، والإبداعات الأدبية وسيلةً أخرى لجسّ النبض، وزرع الأمل، وبثّ الوعي في النفوس، فلعبت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دوراً مهماً في الحفاظ على الهوية الوطنية للشعب الجزائري، مُتصدية بذلك لكل أشكال الغزو الاستعماري، والاستيلاء الحضاري الفرنسي، وعاملةً في الوقت نفسه على صيانة الدّين الإسلامي؛ من البدع والخرافات وما شابه من المنكرات، والمحافظة على لغة القرآن الكريم نطقاً وكتابةً وحفظاً، علاوةً على

الدُّود على حُرُمات الوطن الجزائري وصور كرامته من لوثة المحتل الغاصب؛ ولكي تؤسّس هذا الوعي ركّزت جُهدُها على جملة من الموضوعات الحسّاسة التي تصوّن المجتمع الجزائري من الانسلاخ والدُّوبان؛ وثُرِّسَ فيه الإخلاص للدِّين، والاعتزاز بالوطن، ومن تلك الموضوعات سنذكر ما وجدناه؛ حسب مسحة خفيفة لإبداعات المشايخ: ابن باديس والابراهيمى وأبي يقظان.

أ/ الاعتزاز بالدِّين الإسلامي والدَّعوة إلى اتّباعه بصدق:

يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس:

شَعْبُ الْجَزَائِرِ مُسْلِمٌ وَإِلَى الْعُرْوَةِ يَنْتَسِبُ
مَنْ قَالَ حَادَ عَنْ أَصْلِهِ أَوْ قَالَ مَاتَ فَقَدْ كَذَبَ
أَوْ رَامَ إِذْمَاجًا لَهُ رَامَ الْمُحَالَ مِنَ الطَّلَبِ

يُتَرُّ الشيخ عبد الحميد بن باديس في أبياته السَّابقة بانتماء الشَّعب الجزائري إلى الإسلام واللُّغة العربيّة، ويُنكِر على من حادَّ عن نَحج الإسلام واتَّبع هواه، كما يستغرب من دُعاة الإدماج مع فرنسا انسلاخهم من دينهم وهويّتهم من جهة، وأنَّهم لن يصلوا إلى تحقيق مُرادهم من جهة أُخرى، فلا يمكن دمج أُمَّة مُسلمة مع أُمَّة كافرة مُستعمِرة لنهي الله تعالى عن ذلك في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾⁽¹⁴⁾.

وعلى النِّسق نفسه سار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي؛ إذ يقول متحدِّثاً عن الإسلام: "...إنَّه دين الفطرة، ولا يرجع في أحكامه إلا إلى النص القطعي من كتاب محكم أو سنة قولية أو عملية متواترة، وأنَّ كل ما ألصق بالدين من المحدثات؛ فهو بدعة يجب اعتبارها ليست من الدين، وإن تراءت في صورة ما يقتضيه الدِّين ... إنَّ المعاملة مبنية على مراعاة مصالح البشر، ونظام اجتماعهم العمراني، ولذلك كانت أغلب أحكام المعاملات المأخوذة من القرآن كلية قلَّ أن نعثر فيها على التفصيل، وإن الأنسب لسماحة الدين وبقائه وصلاحيته لكل زمان ومكان؛ أن يكون للزمان والمكان والعرف والعادة والبيئة مدخل في تكييف أحكام المعاملات وتطبيقها على الحوادث الجارية"⁽¹⁵⁾.

يفتخر الإبراهيمي بدين الإسلام مُعترفاً أنَّه فطري في الإنسان، مُحكم التَّزِيل، قطعيُّ الثُّبوت، مُتواتر الرواية؛ ولكنَّ الغريب في هذا هو: ما شابه من البدع والخرافات؛ التي قُرِّمت الدِّين، وقُدِّمت عنه صورة مُشوَّهة، فشَتَّان بين الدِّين الحق والتدوين المغشوش؛ وعليه فإنَّ الكاتب يدعو إلى التمسُّك بالدِّين الإسلامي الصَّحيح؛ وفق ما ارتضاه الله عزَّ وجلَّ في كتابه وسنَّة نبيِّه، بعيداً عن مُحادثات الأمور، كما يدعو الإبراهيمي إلى ضرورة تكييف المُستجدَّات، وفق زماها لتناسب الدِّين وليس العكس؛ وهذا ما يُسمَّى بالمصلحة المُرسَلة التي تتوافق مع الأحكام التي لا نَحْدُ لها حضوراً لا في القرآن ولا في السُّنة؛ ولكنَّها مأخوذة من المنطق الذي يُراعي مصالح النَّاس فلا ضرر ولا ضرار فيه، ويبقى الدِّينُ ناصعاً مثلما ارتضاه ربُّ البشرية للنَّاس، ويتكاملُ باجتهاد العلماء وقياسهم؛ لا بالبدع المُنكرة التي تُشوَّه صورته.

وفي هذا الإطار يقول الشيخ أبو اليقظان في مقال بعنوان: (الإسلام يحتضر والمسلمون يهلون) "إنَّ الإسلام في حال احتضاره هذه ليس في حاجة إلى الاستكثار من المنتسبين إليه، ولن يُنقذه ممَّا هو فيه من الضُّعف والوهن، وإنَّما هو في حاجة أكيدة إلى إسعافه بالأدوية النَّاجعة؛ إلى العُدَّة اللازمة والقوة العتيدة من المال والعلم والثقافة الإسلامية"⁽¹⁶⁾.

يرى أبو اليقظان أنَّ الإسلام لا يحتاجُ إلى كثرة المنتسبين الوهميين الذين لا يُمَثِّلون بصدقٍ نظرة الإسلام النَّاصعة الصَّحيحة؛ بل وجود هؤلاء هو السَّبب في ضُعفه وانحداره بسبب تدنيهم المغشوش، وعليه فإنَّ الإسلام مُحوج إلى من ينصِّره ويُعاضده، ويشدُّ أزره بقوَّة في جميع مجالات الحياة؛ حتَّى يُرى الإسلام يمشي على الأرض صدقاً وعدلاً.

ب/ الاهتمام باللغة العربية وآدابها:

يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: "والأدب أيها السادة هو الوشيحة القوية والوثيقة الباقية التي لم تنقطع طوال القرون وعبر الأزمان... فهذه هي الأيام تطوي الدول وتقرب البعيد، أو تبعد القريب، وتقطع هذا السبب أو ذاك من علاقات الأفراد أو روابط الجماعات، ويبقى اللسان العربي، والبيان العربي، والشعر العربي رسلاً صادقين وروابط قوية

بين أبناء العروبة كلهم؛ نعم، يبقى الأدب العربي رباطاً يجمع العرب مهما اختلفوا أو تفرّقوا في ميادين أخرى بطارئ من طوارئ الهم، أو لون من ألوان الاختلاف في الهمم... يبقى الأدب يصوّر الخواطر، ويأسو الجراح، ويؤلف بين الألسنة والقلوب حتى تتصافح الأيدي، ويعود البناء كما كان، أيباً لا ينال، قوياً لا يلين؛ ولربّ خاطرة لكاتب أو همسة لشاعر، أحييت رماً، وبعثت دارساً، وردّت ذاهباً، وفجّرت الينابيع في ضمّ الصخور⁽¹⁷⁾.

يدعو الإبراهيمي إلى الاعتزاز باللغة العربية وآدابها؛ التي تُعتبر وثاقاً يشدُّ أبناءه من التلافي والدّوبان، وذلك بللممة جراحهم، وجبر خواطرهم، والتخفيف عن معاناتهم، ويظهر آثارها في الخواطر الراقية، والأشعار الرقيقة التي تؤثر في النفوس، وتُعذّي العقول وتُغيّر من حالٍ سيء إلى حال جيد، فالكلمة المُعبّرة لها تأثيرها البالغ؛ حيث تصل بمدّها إلى تأليف القلوب، وتهذيب الألسنة، وتحسين الأخلاق، هذا من جهة الخطاب الصّريح، ومن جهة الخطاب التلمحي نجد الكاتب يدعو إلى المحافظة على الأدب العربي، والاهتمام به، وتسخيره لأن يكون جامعاً للقلوب، مؤلّفاً بين أبنائه بشعره ونثره، باعتباره الوثيقة الخالدة التي لم تنقطع رغم تعاقب الحضارات ومرور الأزمان، وفي هذا إشارة خفيفة إلى قوّة اللغة العربية وخلودها في التاريخ.

وعن نفس الهدف يقول الشيخ عبد الحميد ابن باديس: "تكاد لا تخلص أمة من الأمم لعرق واحد، وتكاد لا تكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد؛ فليس الذي يكون الأمة ويربط أجزائها، ويوحّد شعورها، ويوجّهها إلى غايتها هو هبوطها من سلالة واحدة، وإنّما الذي يفعل ذلك هو تكلّمها بلسان واحد: ولو وضعت أخوين شقيقين؛ يتكلم كل واحد منهما بلسان وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر، وتباين قصد، وتباعد تفكير، ثم وضعت شامياً وجزائرياً - مثلاً - ينطقان باللسان العربي ورأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب في ذلك كله، لو فعلت هذا لأدركت بالمشاهدة الفرق العظيم بين الدم واللغة في توحيد الأمم... فانظر بعد هذا إلى ما قرره هذا النبي الكريم... فوضع للأمة العربية قانونا دينيا اجتماعيا طبيعيا؛ لتتسع دائرتها لجميع الأمم التي رشحت لدعوتهما إلى الإسلام بلغة الإسلام"⁽¹⁸⁾.

يُبين الشيخ عبد الحميد فضل اللغة العربية التي وُحِّدَت المُسلمين على لسانٍ واحد في شرائعها ودينها، والشيء الذي يُثَبِّتُها أكثر هو نزول القرآن الكريم بلسان عربي مُبين فوَحَّد الأُمَّة رغم اختلاف أعراقها وأنسابها، وتنوّع قبائلها وبُطونها، وليس من السُّهولة بمكان توحيد أُمَّة كبيرة على لسان واحد، ولكنّه بمجرد التَّخاطُّب بين شخصين شامي وجزائري - مثلما ضرب بهما الشيخ عبد الحميد المثل - فإنَّنا نلمسُ توحُّد الرأي وتقارب الفكر، وعبقريَّة التعبير، وأُحادِيَّة اللُّغة، وهذا هو سَعَة الإسلام الذي يجمعُ النَّاسَ بمختلف أجناسهم، ويُوَحِّدُهم بمنهج، ولغته التي يتواصلون بها، ويؤدُّون بها نواميسه البارزة فيه كقراءة القرآن والصَّلاة، وغير ذلك من العبادات التي لا يُمكن أن تؤدَّى إلا باللغة التي ارتضاها الله لخلقه لغة القرآن الكريم.

وعندما رأت جريدة البُستان النُّور يفتتح عددها الشيخ أبو اليقظان مُعلنًا أسباب وضعها: "السلام عليكم أيها القراء ورحمة الله، وبعد فهذا أعود إلى الميدان حاملا إليكم -إخواني- من بستاني هذا باقات من زهور الإنس والجن، وأطباقا من درر المنظوم والمنثور راجيا منكم أن تقابلوها ببشاشة الوجوه، وابتسام الثغور، وارتياح النفوس واتساع الصدور، وبسط الأكف ورنين الدور، وسنَّ الله لكم جزيل الأجور، وبناء على تعطُّش شطر كبير من الأُمَّة إلى جريدة فكاكية لذيدة خفيفة الروح، نزيهة الأسلوب، نبيلة المقصد، وحيث أن طبقة كبيرة من العامة لم تستفد قليلا ولا كثيرا من جرائدنا العربية الجدية لعلوها عن مستواها الفكري.... بناء على ما تقدَّم رأينا من الواجب أن ننشئ جريدة عربية نصف شهرية تفي بهذا الغرض الشريف، فأُسَّسنا هذه الجريدة تحت اسم "البستان" إشعارا بما ستحملة إلى قرائها الكرام من كلِّ ما يحمله البستان من أنواع الثمار والفواكه والبقول والزهور والرياحين بإذن الله، وتتوخى لباب الحكمة، وقلب الفائدة في شفوف اللفظ، وعذوبة الأسلوب، ورُقَّة التعبير مع نبل المقصد، ونزاهة الضمير، وحسن النية، ولا تتعرض للشخصيات، ولا تتداخل في الحزبيات، ولا تناصر إلا ما يراه الحقُّ حقا، وهي مفتحة الأعمدة للأدباء والظرفاء ما داموا على نهجها"⁽¹⁹⁾.

نلاحظ أن الشيخ -هنا- يُقر بعودة جريدة جديدة (..فها أنا أعود إلى الميدان) ملمّحا لقرائه بمصادرة الجريدة السابقة، والآن ستقرؤون جريدة جديدة، ويتخذ أبو اليقظان وسيلة جيدة لافتتاح كلامه مستندا إلى السجع؛ مستخدما حرف الراء في أواخر الكلمات بما يُشيعه هذا الحرف من انحراف، وتكرار ونغم عذب موسيقي؛ يأخذ بالألباب ويسيطر على العقول والأصحاب، ويتجلى ذلك في الكلمات التالية (الخبور، المنشور، الثغور الصدور، الدور، الأجور)، ومن خلال هذا الحديث يُعطي القيمة الفنيّة للغة العربية ويُشجّع القراء على الاستمساك بها، وتذوّقها شعرا ونثرا (المنظوم والمنثور) ويبيّن أبو اليقظان أهمية الدعابة والطرفة، والظرافة في الطّرح، التي تصنع للغة جمهورا فاضلا؛ كما أنّه يرمي من وراء ذلك إلى رفع المستوى الأدبي؛ لغةً وأسلوباً ومعنى وهدفاً؛ إضافة إلى تقييدها بشرط ديني وهو عدم التعرض للأشخاص -مثلا نجد في صحافة اليوم باسم حرية التعبير والصحافة- فضلا عن ذلك كله؛ فإنّ صحافة الشيخ أبي اليقظان تتوخى الحقيقة، وتشر الحق ولا ترضى بمثل ذلك بديلا؛ كما نجده يمنح الفرصة للأدباء بإدلاء دلوهم فيها بما يُضيف للغة من جمال التركيب، وعذوبة الألفاظ، واختيار المعاني، وقوّة السبك.

ج/ أهمية التربية والتعليم والتثقيف:

يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: "المثقفون هم حفظة التوازن في الأمم؛ وهم القومة على الحدود أن تهدم، وعلى الحرمات أن تنتهك، وعلى الأخلاق أن تريغ، وهم الميزان لمعرفة كل إنسان حدّ نفسه، يراهم العامي المقصّر فوقه؛ فيتقاصر عن التسامي لما فوق منزلته، ويراهم الطاغوي المتجبر عيوناً حارسة؛ فيتراجع عن العبث والاستبداد. الحقّ أنه يوجد في الأمة الجزائرية اليوم مثقفون على نسبة حالها، وعلى حسب حظها من الإقبال على العلم، وعلى مقدار الوسائل التي تهيأت لها في ذلك- ولكن المثقفين منا قليل جداً لا في الكمّ والعدد ولا في الكيف والحالة، ولا نطمع في زيادة عدد المثقفين إلّا إذا زاد شعور الأمة بضرورة التثقيف، وتهيأت أسبابه أكثر مما هي متهيئة الآن- ولا نطمع في زيادة الكيفية إلّا إذا توحدت طرائق التثقيف، وجرت على ما يوافق روح الأمة في دينها، وعقائدها الصحيحة وتاريخها، ولغتها وجميع مقوماتها، واتحدت الأهواء المتعاكسة، واتفقت المشارب المختلفة في الأمة، وصحّت نظرتها للحياة، وصحّ اختيارها لطرقها المناسبة لوجودها"⁽²⁰⁾.

يُعرِّفُ الشيخ الإبراهيمي المثقفين بكونهم سراً الأُمَّة وخيارها والمحافظون على قيمها وأخلاقها والحارسون لحدودها ومعالمها، يخافهم المتجبرون لعلمهم الرّصين؛ فلا يُفكِّرون في الطُّغيان والاستبداد، ويراهم عوام النَّاسِ قدوةً راقية؛ فيتعلمون منهم ويتواضعون لهم؛ ولكنَّ الأُمَّة الجزائرية ليس لها نسبة مُعتبرة من المثقفين شكلاً ومضموناً، ولا بدَّ أن تُشجّع الثقافة، وتُهمِّمَ بها ليربو عدد مُثَقِّفيها، ولا يتأتَّى لها ذلك إلا إذا أخذت الموضوع بجدٍّ واهتمام، آخذة بعين الاعتبار مناهج التثقيف وأهدافه على الشَّكل؛ الذي يتوافق مع عقيدة الأُمَّة ودينها القويم ولغتها الفصيحة، وبالتالي فإنَّ التثقيف في الفكر الإبراهيمي هو جدلية قائمة على اتباع الدِّين الإسلامي واللغة العربية، واحترام أعراف المجتمع باعتبارها أصولاً له، ثم الغوص في طريقة التثقيف، وتعلُّمها والخوض في غمارها.

وفي مجال الاهتمام بالعلم والثقافة يقول الشيخ إبراهيم أبو اليقظان: "قبل الاعتناء بحفر الآبار في شوارع البلاد وأنهجها، وقبل الاهتمام برصد الأموال الطائلة لها يجب الاهتمام بحفر آبار العقول، وتفجير عُيون العلوم في أدمغة الشُّبان الأذكياء؛ فالأُمَّة إلى هذه العُيون المدارة أحوجُّ منها إلى نَقب الأرض، ولا يُطفئُ حريق الجهل دلوٌّ من تلك الآبار الأرضية وإنما يُطفئُه لوح ومُحبرة وقلم وكتاب، يُطفئُه فُتْحُ المعاهد العلميّة، ومُدُّ يد المساعدة للشُّبان الفقراء الأذكياء؛ بتسهيل وسائل التعليم لهم، وتمهيد طُرُق التربية الصَّحيحة أمامهم"⁽²¹⁾.

يرى الشيخ أبو اليقظان أنَّ الأُمَّة بحاجة إلى الاستثمار في العقول، وتكوين الرِّجال الفُحول، والاهتمام بمرافقة الشباب النَّابِغين، وملاء عقولهم بالعلم النَّافع والثقافة الأصيلة ومساعدتهم في تحقيق هذه الأهداف النَّبيلة، ونجده يُلحُّ على التعلُّم قبل تنقيب الأرض وحفر الآبار؛ لأنَّ هذه الأعمال - وإن كانت جلييلة في خدمة البلاد - لكنها يُمكن أن تصبر إلى أجلٍ مُسمًّى؛ وأمَّا خطورة الجهل على الأُمَّة عظيم وخطبه جليل، يجب تداركه قبل استفحاله بفتح المعاهد العلميّة، والمؤسَّسات التربوية، ورصد الأموال والعتاد اللازم لها لتخريج ثلَّة مباركة من الشُّباب اليافع، فينفعون بعلمهم العباد والبلاد بما يعلمون ويتعلَّمون.

وبالحديث عن أهميّة التعليم يقول الشيخ بن باديس: "... وكل آية دعت للعلم، قد دعت للكتابة؛ لأنَّ الله قد بين لنا أنه علَّم بالقلم؛ ليبين لنا أن القلم هو طريق العِلْم، وآلة

حفظه وتدوينه، وأقسم بالقلم؛ تنويرها بشأنه، وجاء ذلك كله على الخطاب العام الشامل للنساء شموله للرجال والعمومات؛ إذا تكاثرت أفادت القطع فاستنادا إلى هذه الأدلة، وسيرا على ما استفاض في تاريخ الأمة، من العلامات الكتابات الكثيرات - علينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا وبناتنا في رجالنا ونسائنا على أساس ديننا وقوميتنا إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه من العلم؛ الذي هو تراث البشرية جمعاء، وثمار جهادها في أحقاب التاريخ المتطاولة؛ وبذلك نستحق أن نتبوأ منزلتنا اللائقة بنا والتي كانت لنا بين الأمم⁽²²⁾.

لابن باديس فلسفة تربوية تتجلى في كون القرآن الكريم؛ يدعو إلى العلم والتعلم في جلّ آياته، وأوّل آية فيه تدعو إلى القراءة والكتابة بالقلم، ويُقسم الله تعالى بالقلم لعظمته، وقيّمته التربوية في التدوين، وترسيخ العلوم وضبطها بالكتابة كمرحلة أولى وحفظها كمرحلة أخرى، والأمر بالتعلم والقراءة عام يشمل كلّ الفئات والأعمار، فلا فرق بين النساء والرجال في التعلم؛ باعتبار شمولية الخطاب القرآني وعموميته، والملاحظ هنا أنّ جمعية العلماء بشكل عام، والشيخ ابن باديس بشكل خاص كان قد دعا في وقت مبكر إلى تعليم المرأة بعدما كان مقتصرًا على الرجل فقط؛ مُستشهدًا من بطون التاريخ بمآثر العلامات من النساء؛ ممّن تركن بصمةً مُثيرة في الحياة، وكان مسعاه من وراء ذلك هو تكوين الأمة بكلّ أطيافها؛ ليكون فيها الوعي منتشرًا سلوكًا وواقعا، على أنّنا نلاحظ ابن باديس يقرن التعلم والثقافة بوجود التدوين والمحافظة على اللغة العربية؛ وذلك لوجود كثير من المثقفين في عهده يتنكّرون للإسلام واللغة العربية؛ ممّن يدعون للإدماج والمساواة مع فرنسا، وعليه فإنّ الاهتمام بالعلم والثقافة بهذا المنطلق يفتح الآفاق للمتعلمين بالخوض في أشكال الدّراسة والتراث التي ترفع صاحبه مقامًا عليًا من جهة، وتُشرف بها أُمّته ووطنه من جهة أخرى.

د/ ترسيخ الانتماء للوطن الجزائري:

يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس في مقال بعنوان: (الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء) "بهايتين الحملتين منذ نيف وعشر سنين توجنا جريدة (المنتقد) الشهيدة، وجعلناها شعارا لها تحمله في رأس كل عدد منها. هذا أيام كانت كلمة الوطن والوطنية

كلمة إجرامية لا يستطيع أحد أن ينطق بها، وقليل جدا من يشعر بمعناها. وإن كان ذلك المعنى دفينا في كوامن النفوس ككل غريزة من غرائزها، لا سيما في أمة تنسب إلى العروبة وتدين بالإسلام مثل الأمة الجزائرية ذات التاريخ المجيد. أما اليوم وقد صارت كلمة الوطن والوطنية سهلة على كل لسان، وقد يقولها قوم ولا يفقهون معناها، وقد يقولها آخرون بألسنتهم، ولا يستطيعون أن ينتسبوا لها في المكتوب من رسمياتهم، ويفزع منها من يتخيلون فيها ما يعرفون في وطنياتهم، وينكرها آخرون زعما منهم أنها ضد إنسانيتهم وعمومياتهم فالإنسان من طفولته يحب بيته وأهل بيته لما يرى من حاجته إليهم واستمداد بقاءه منهم وما البيت إلا الوطن الصغير؛ فإذا تقدم شيئا في سنه اتسع أفق حبه وأخذت تتسع بقدر ذلك دائرة وطنه، فإذا دخل ميدان الحياة وعرف الذين يمثّلونه في ماضيه وحاضره وما ينظر إليه من مستقبله، ووجد فيهم صورته بلسانه ووجدانه وأخلاقه ونواذعه ومنازعه - شعر نحوهم من الحب يمثل ما كان يشعر به لأهل بيته في طفولته ولما فيه - كما تقدم - من غريزة حب الذات وطلب البقاء، وهؤلاء هم أهل وطنه الكبير، ومحبتهم لهم في العرف العام هي الوطنية. وهذه هي وطنيتنا معشر المسلمين الجزائريين الأفارقة ووطنية كل مسلم صادق في إسلامه ووطنيته، وقد أعلنها يوم قلنا على رأس جريدة (المنتقد): (الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء) وسرنا على مقتضاها إلى اليوم في كل ما قلنا وكتبنا وسنبقى عليها ككل مسلم جزائري⁽²³⁾.

يدعو الشيخ عبد الحميد إلى الاعتزاز بالوطن، ووضعه فوق اعتبار، مُبيِّنًا حجم التّضحيات التي ضحّى من أجلها الشعب الجزائري لترسيخ المواطنة في سلوكه؛ حينما كان الانتماء والاعتزاز بالوطن جريمة تلاحق بها السلطات الاستعمارية الفرنسية كل من ينادي بهذه الفكرة أو يدعو إليها؛ لأنها تعتبر إرهابات قويّة ستندّر بثورة عارمة بعد مدّة، فوجب على من ينتسب إلى الجزائر أن يفتخر بها وطنًا، وبالعربية لغةً، وبالإسلام دينًا؛ وهو الشّعار الذي دأبت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ترسيخه في ندواتها التربوية، ومنابرها المسجدية، وخطاباتها الوطنية، ومناشيرها التوعوية، ولكنّ الوطنية إيمان بحقيقة الجزائر في تاريخها العريق وحضارتها العميقة، وليست كلمة تلوّكها الألسنة وتردّها الأفواه؛ لأنّ كثيرًا

من النَّاس - حسب ابن باديس - ينتسبون للوطن لفظاً، ويخونونه واقعاً من خلال مُسايَرة الخطاب الكولونيالي الفرنسي الذي يُنكر تاريخ الجزائر ورسوخها منذُ القَدَم؛ وبالتالي فإنَّ أي إنسان يُحِبُّ بيته وأسرته، وهما بمثابة وطنٍ صغير؛ لابدَّ عليه أن يُحِبَّ وطنه الكبير الذي احتواه في أرضه، ومنح له البقاء فيه في أريحية وأمان، والواجب على كلِّ جزائري أن يُثبت ولاءه لوطنه؛ كما يُثبت انتماءه لإسلامه، ويحرص على صونه من كيد الأعداء ويُعلي فوق أرضه الحقَّ الثابت في أصله، والرَّاسخ في جذوره وأصوله.

وعن تيمة الانتماء يقول الابراهيمى متحدِّثاً عن وطنه الجزائر: "هذا الاسم أصبح علماً تاريخياً وجغرافياً على هذه القطعة الثمينة الواسعة من شمال إفريقيا، مشخصاً لها تشخيصاً واقعياً لا ينصرف الذهن إلى غيرها عند إطلاق الاسم ولا يتردد سامع في مسماه وهذه القطعة ذات خصائص طبيعية وخصائص مكتسبة، اجتمعت كلها في نقطة واحدة تصدق رواد الحق وأنصار الحقائق، وتكذب المبطلين من أصحاب الفكر الزائغ، والرأي الضال والهوى الأعمى... ومن أسفه السفه دعوى مجانين السياسة من الفرنسيين أنها قطعة من فرنسا"⁽²⁴⁾.

يصف الشيخ البشير الإبراهيمي وطنه الجزائر بالأرض الطيبة؛ التي لها تاريخ أصيل وحضارة ممتدة الجذور في التاريخ، وموقع جغرافي استراتيجي بما يكتنفه من جمال أخاذٍ جذَّاب وثروات طبيعية؛ جعلتها محلَّ أطماع الغزاة المُحتلين وعلى رأسهم فرنسا الظَّالمة التي مكثت طويلاً في الجزائر؛ لزعمها أنَّ الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا، وهذا الزَّعم باطل لا أساس له من الصَّحَّة، فالوطن الجزائري عريق في تاريخه، أصيل في انتمائه ولا علاقة له لا من قريب ولا بعيد بالفرنجة؛ ومن لفَّ لَقَّهم من الغزاة الطَّامعين؛ ولكنَّ هذه الدَّعاوى الباطلة لا تتحمَّلُها فرنسا لوحدها؛ بل يتحمَّل معها المسؤولية جزء كبير من الجزائريين الذين تراهم في ظاهريهم وطنيين وفي باطنهم غير ذلك؛ حيثُ ينشرون الأكاذيب والآراء الرَّائجة والأفكار المُغلَّطة بانتماء وطنهم إلى فرنسا؛ وهو ما يُفنِّدُه الإبراهيمي ويدعو إلى استكناه المعرفة الحقيقية المتعلقة بأرض الجزائر تاريخاً وفكراً وموقعاً وقيمةً.

هـ/ أهمية الحفاظ على اللحمة الوطنية:

يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: "...فالإسلام قد دخل الجزائر، ونبت في قلوب الجزائريين، وهذا التاريخ المجيد للعروبة والإسلام في الجزائر يعرفه الفرنسيون حق المعرفة، هؤلاء الذين يدّعون بكل وقاحة أنّ الجزائر قطعة من فرنسا دون أن يلاحظوا الأدلة ضدّهم في اختلاف اللغة والعادات والدين، وذلك البحر الذي فصلنا عنهم يشهد بالوقائع التاريخية بيننا وبينهم منذ أن كنّا برّبراً إلى أن صرنا عرباً ومسلمين؛ فأين العقل النير في العالم الذي يُميّز الحق من الباطل؟ وأين الضمير الحي الذي يعترف بهذه الحقيقة؟" (25).

ينصح الشيخ البشير الإبراهيمي أبناء أمّته الجزائريين إلى ضرورة الالتفاف حول وطنهم والوحدة في سبيله، فرغم اختلاف أعراق الجزائريين وتفرّع أنسابهم وبطونهم وانقسامهم إلى بربر وعرب؛ إلا أنّه لا يمنع منهم؛ ذلك أن يلتفوا صفوفاً مرصوصة في وجه المستعمر الغاشم، ويكفيهم شرفاً وفخراً أنّ الإسلام لمّا دخل أرض الجزائر الطاهرة وحّد صفوفهم وجمع شتاتهم، ورصّ بُنيانهم فكانوا إخوة في الدين واللغة والأرض والتاريخ، وتجمع بينهم الأعراف والتقاليد؛ والواجب عليهم الحذر من مكاييد الاستعمار الذي يزرع فيهم الفتنة والقلق، ولا بدّ أن ينتبهوا إلى دسائسه الخبيثة التي يريد من ورائها إرجاع الجزائر أرضاً فرنسية وقطعة منها؛ ولكنّ العاقل يلاحظ اختلاف الأصول والفروع؛ التي تجمع اللحمة الوطنية بين الشعب الواحد؛ وعليه فإنّ الإبراهيمي في ظلّ هذا الوضع الحساس؛ يدعو الجزائريين إلى شدّ عُرى بعضهم، والوحدة تحت ظلال الوطن الذي يسع الجميع.

وفي سياق الوحدة يقول الشيخ إبراهيم أبو اليقظان: "...إنّ التحام النفوس، وتآلف القلوب ركنٌ أساسي للاجتماع والعُمران، وما عمّرت البلاد، وشيّدت الدول وأسّست المشاريع الكبرى إلا بتوحيد الجهود، وجمع أشتات القوى، فإنّ الإنسان مهما بلغت قوّته فهو ضعيف، وقوّة الفرد محدودة؛ وإنّما قوّته وصولته وعزّته بأخيه. إنّ المسلمين في زماننا هذا أحوجّ النَّاس قاطبةً إلى التآلف والالتحام، وتناسي الأحقاد والفوارق، والحوازر الوهميّة؛ التي بنتها بينهم السّيّاسات والأغراض والأهواء؛ لأنّهم أضعفُ أمم الأرض عُدةً، وأشدّهم استهدافاً للأخطار والمهلكات" (26).

يقترّب مفهوم الوحدة عند أبي اليقظان من مفهوم الوحدة عند الإبراهيمي؛ إذ لا يتحقّق التعاون البشري والتّضامن الإنساني بين المجتمعات؛ إذا لم يجمعها رابطُ التّآلف والتّلاحُم؛ لأنّ الإنسان ضعيف بنفسه قويّ بغيره، ولا يمتلك هذه القوّة إلا في ظلال الجماعة؛ ولن تتّمّ الوحدة والتّآلف ما لم يتمّ طرح الاختلافات الاثنية والمذهبية والعرقية والجنسية والجغرافية جانباً، وهذا على مُستوى البشرية قاطبةً والأمر نفسه بالنسبة للجزائريين والمُسلمين الذين تستهدفهم أيدي الأعداء، وتُخطّط لهم العيش في أتون القلاقل والفوضى؛ وعليه فإنّ الوحدة تردّج التخطيطات الظّلامية وتقضي على الأخطار المُحتملة وتشدّ من أزر المجتمع والأمة والوطن.

وعن أهمية الاتحاد يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس الجزائري: "... علينا أن نعتقد بقلوبنا أن الاتحاد واجب، أكيد، محتّم علينا مع جميع المؤمنين، وأن فيه قوتنا وحياتنا، وفي تركه ضعفنا وموتنا، وأن نعلنا ذلك بألستنا في كل مناسبة من أحاديثنا، وأن نعمل على تحقيق ذلك بالفعل باتحادنا وتعاوننا مع إخواننا في كل ما يقتضيه وصف الإيمان الجامع العام، والله المستعان وعليه التكلان"⁽²⁷⁾.

يوصي الشيخ عبد الحميد بن باديس بوجوب الاتحاد بين جموع المُسلمين، ووجب الالتحام والتعاون مثل الجسد الواحد؛ ففي الاتحاد قوة ووثاق، وفي الضّعف تفرّق وتلاشٍ والوحدة كالبُنيان المتين المُتشكّل من الحجارة الصّغيرة والكبيرة؛ لا تستغني أحدها عن الأُخرى؛ فكذلك اتحاد المُسلمين، بل هو أوجب وأؤكد؛ وفي ظل وجوده قوّة وحياء، وفي تركه ضعف وموت، ولا بدّ من الاعتقاد الجازم بوجوب الوحدة والدّعوة إليها في كل مقام ومقال، مع التّعاون المُستمر على تحقيقها سلوكاً وواقعاً.

و/ ضرورة الاهتمام بالمنظومة الأخلاقية:

يقول الإبراهيمي مُتحدّثاً عن الأخلاق: "وأما اللازم الثاني وهو الأخلاق؛ فنحن أحوج ما نكون إليه في هذا الزمان الذي كثرت فيه المبادئ العاملة على هدم الأخلاق الخيرية، وكثرت فيه الأذواق المتطرّفة؛ التي تستمرئ الرذيلة على الفضيلة. وإذا كان عقلاء الأمم التي هي أرقى منا بكثير تشكو فساد الأخلاق في أممها؛ فمن نحن وأين نكون؟

فالواجب على اجتماعنا؛ الذي نشد تكوينه أن يبذل مجهودات قوية لرفع درجة الأخلاق عندنا، ومن فكري الخاص أن هذه الناحية من أمراضنا هي أيسر معالجة من جميع النواحي⁽²⁸⁾.

يرى الإبراهيمي بضرورة التحلي بالأخلاق الفاضلة خاصة في هذا الزمان الذي نلمس فيه طغيان الفساد على الصلاح والشر على الخير؛ فضلا عن وجود عصابات الشر؛ التي تعمل على هدم المنظومة الأخلاقية، وتسعى إلى نشر الدنائة والرذيلة في الأوساط الاجتماعية، مع ما يُحيط بالأُمم من خراب أخلاقها وفساد أمورها؛ إذ بات من الأوكد بذل المجهودات الحثيثة لرفع الوعي الخلقي، ونشر المنظومة الصالحة في المجتمع ومن خلال ذلك ستعافى الأمة من أمراضها المستعصية التي تمس أخلاقها وشرفها.

وفي هذا الإطار يقول الشيخ أبو اليقظان ذاعيا إلى الأخلاق: "فقد لمسْتُ مكان الضعف من الأمة في تلك الظروف الحرجة؛ فوجدتُ أن ضعفها هو ناحية الأخلاق... فنددت بمعوج الأخلاق، وأعلنت من شأن التقويم منها"⁽²⁹⁾.

يرى الشيخ أبو اليقظان أن ضعف الأمم في تردّي منظومتها الأخلاقية وفسادها ومتى كانت هناك نية لإصلاحها، وإعلاء شأنها فثمت علاج ناجع لضياغ الأخلاق؛ فلا بدّ إذا من الإشارة إلى قيم الأخلاق والتوعية بمخاطر زوالها على مستوى الفرد والجماعة، إذ صلاحهما يؤدّي بالضرورة إلى صلاح الأمة.

وعلى هذا التّسق يقول الشيخ ابن باديس: "إنّ التزام الصدق يحمل على الوفاء بالعقود والعهود والوعود في معاملة الناس، فتجري أعمال المرء مع غيره على سداد واستقامة... وإن الملتزم للصدق يمسك نفسه عن أعمال السوء مخافة أن يُسئل عنها فيصدق فيجرّ على نفسه سوءا، أو يكذب وهو لا يرضى مواجهة الكذب؛ فتجري أعماله على البر سالمة من الفجور. والملتزم للكذب الضاري عليه يرتكب العظائم، ولا يبالي أن ينفي عن نفسه كذبا. أما البرّ فيوصل إلى الجنة؛ لأنها دار المتقين، وأما الفجور فيوصل إلى النار؛ لأنها دار الفاسقين؛ وأما كتابة الملازم للصدق صديقا؛ فجزاء له من جنس عمله، فإنه داوم على الصدق وثبت عليه حتى رسخ فيه، وتمكن خلقا من أخلاقه، فأثبت اسمه

كذلك في الصديقين ومثله ملازم الكذب.. وبين الخصال خصال البر، وخصال الشر تناسب وتوالد؛ أو هذا أصل يحتاج إليها في تهذيب الأخلاق، وتركبة النفوس وعلاج أدوائها، فإن من عرف المرض الأصلي الذي نشأت منه أمراض أخرى سهل عليه إذا عالجها أن يقتلع- بإذن الله- الباقي، ومن عرف أصل الخير سهل عليه إذا تمسك به أن يحصل على فروعه؛ وإن تكرر العمل بمقتضى خلق من الأخلاق يقويه ويشبهه؛ وأن العمل على مقتضى ضده يضعفه ويزيله، وهذا أصل عظيم أيضا في التربية يُعلّمنا أن التساهل في الأعمال السيئة -ولو كانت في نظرنا طفيفة- يُفضي بنا إلى استعصاء داء الرذيلة، وأن القيام بالأعمال الحسنة ولو كانت طفيفة يُلْغِ بنا إلى رسوخ الفضيلة⁽³⁰⁾.

قام ابن باديس بمقاربة الأخلاق مع المعاملات البشرية؛ فرأى بالزامية الصدق والوفاء وتجنب الكذب؛ لأن الإنسان الذي يُعلّم نفسه الصّدق سيجعله حاجزا بينه وبين المعاصي التي يُمكن أن يسقط فيها؛ وبالتالي فقد وطّن نفسه على أعمال البرّ؛ التي ستفتح له الأبواب مُسرعةً للطاعات ومكارم الأخلاق، بيد أن الكاذب بكذبه قد سلك طريق الفُجور؛ فكما يُقال الكذب أمّ المعاصي، وإن عاقبته وخيمة بالنظر إلى ما ينتظر صاحبه من العذاب في النَّار، وعليه فالكاتب يدعو النَّاس إلى مُلازمة الأخلاق الفاضلة التي تولّد خصال البرّ، وتحبّب الأخلاق الفاسدة التي تولّد خصال الشر، ومن يلزم نفسه على الأخلاق الصّالحة سهلت عليه مواطن الخير، وزكّت نفسه من أدرانها، وسَمَت أخلاقه نحو العلا والسُّودد؛ ولن يتأتّى ذلك إلا بالتربية ابتداءً، وتعويد نفسه انتهاءً، ثمّ بقره النَّفس وعدم التّساهل معها في أعمال الشرّ والموبقات التي تولّد فساد الأخلاق وتعليمها العمل الصّالح؛ الذي غالبا ما يكون مرادفاً للخلق الطيب الصّالح كذلك.

خاتمة:

خلاصة القول أن الوعي المُواطني يتطلّب الإدراك الفعّال لقيم المواطنة؛ التي تتراءى في حياة النَّاس السُّلوكيّة والاجتماعية والسياسية والثقافية؛ إذ تجعل الفرد يحسّ بقيمة الانتماء لوطنه، وتصنع فيه الوعي اللازم ليقدم الولاء المُطلق له دون قيد أو شرط؛ فضلا عن القيام بالواجبات المنوطة به لجني الحقوق لاحقا، ولن يتأتّى ذلك إلا بالالتزام

بمقومات المواطنة الحقة، وممارسة قيمها ومبادئها على الشكل؛ الذي يرتضيه العقل والمجتمع، وفي ذلك إشعار بثقل المسؤولية تجاه الوطن؛ فتظهر في بنائه والعمل المخلص من أجله، والدفاع عن كل ما يهدده من أزمات ومخاطر، إضافة إلى أنَّ الوعي المواطني يسهم بشكل لافت في رفع قيمة المواطنة لدى الفرد والمجتمع، بتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة إلى جانب غرس قيم المواطنة المتمثلة في الاعتزاز برموز السيادة الوطنية والحذر من المساس بكرامتها أو إهانتها.

وقد لمسنا في ورقتنا البحثية جهود جمعية العلماء من خلال بعض مشايخها العظام: الشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ إبراهيم أبي اليقطان، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي؛ الذين بذلوا عطاءات متعددة في زرع الوعي المواطني لدى الشعب الجزائري؛ والذي كان إرهاباً لتفجير الثورة التحريرية الكبرى لاحقاً، ويذهب كثير من المؤرخين أنَّ جمعية العلماء صنعت الوعي القومي والوطني والدِّيني والثقافي والسياسي والفكري؛ ليتبلور في الكفاح المسلح وهذا ما وجدناه فعلاً من خلال الموضوعات التي طرحوها؛ إذ تتقارب كثيراً في شكلها ومضمونها؛ ممَّا يدلُّنا على ازدواجية الرؤية ومتانة المنهج الإسلامي الذي انطلقوا منه؛ فتحلَّى ذلك في الموضوعات التي صنعت الوعي المواطني وهي الاعتزاز بالدين الإسلامي، والدَّعوة إلى اتِّباعه بصدق وحق والاهتمام باللغة العربية وآدابها باعتبارها لسان الشعب الجزائري الموحَّد والمُوحَّد وأهمية الاهتمام بالتربية والتعليم والتثقيف؛ لأنَّها تصنع وعياً فكرياً، وترسيخ الانتماء للوطن الجزائري وأهمية الحفاظ على لُحمته الوطنية، ثم ضرورة الاهتمام بالمنظومة الأخلاقية لأنَّها تجمع شتات النَّاس في بوتقة شعبية جزائرية مُنسجمة بين جميع الفئات والأجناس والأعراش والقبائل.

الهوامش والإحالات

- (1) - يُنظر: أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1956، ص: 166
- (2) - يُنظر حميدي أبو بكر الصديق، قضايا المغرب العربي في اهتمامات الحركة الإصلاحية الجزائرية (1920م - 1954م)، دار الهدى، الجزائر، د.ط، ص: 66.
- (3) - المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت - لبنان، ط: 43، 2008م، ص: 908.
- (4) - رواه عبد الله بن مسعود، محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار ابن كثير، بيروت لبنان، د.ط، 2018م، رقم الحديث: 2658، ص: 219.
- (5) - حلس، موسى عبد الرحيم، دور وسائل الإعلام في تشكيل الوعي الاجتماعي لدى الشباب الفلسطيني (دراسة ميدانية على عينة من طلاب كلية الآداب جامعة الأزهر)، مجلة جامعة الأزهر بغزة، سلسلة العلوم الإنسانية، مج: 12، ع: 142، 2010م، ص: 180.
- (6) - شلidan، فايز كمال، نموذج مقترح لدور الجامعات الرسمية الأردنية في تنمية الوعي الاجتماعي لدى الطلبة من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس والطلبة. رسالة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2006م، ص: 07.
- (7) - تشارلز فيرست، الدماغ والفكر، تر: محمود سيد رصاص، دار المعرفة، دمشق - سوريا، ط01 1987م، ص: 41.
- (8) - ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت - لبنان، ط04، 2004م ص: 293.
- (9) - رواه عبد الرحمن بن شبل، أبو داود محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن أبي داود، مكتبة المعارف، الرياض - السعودية، د.ط، 2012م، رقم الحديث: 862، ص: 186.
- (10) - يُنظر خضر لطيفة، دور التعليم في تعزيز الانتماء، عالم الكتب، القاهرة - مصر، ط01، 2000م ص: 20.
- (11) - يُنظر مسعود موسى الرضوي، أثر العولمة في المواطنة، المجلة العربية للعلوم السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ع: 19، 2008م، ص: 11.
- (12) - يُنظر زياد علاونة، وزارة الشؤون السياسية والبرلمانية، الأردن، د.ط، د.ت.ط، ص: 09.
- (13) - يُنظر: موقع الموسوعة السياسية (political encyclopedia)، Stanford Citizenship Encyclopedia of Philosophy, 2017، 09:30، 2022/01/01
- (14) - سورة المائدة، الآية: 51.
- (15) - محمد البشير الإبراهيمي، آثَارُ الإمام مُحَمَّدَ البَشِيرِ الإِبْرَاهِيمِي، جمع وتقديم: الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط 01، 1997م، ج: 01، ص: 14.

- (16) - إبراهيم أبو اليقظان، جريدة وادي ميزاب، نشر مؤسسة الشيخ أبي اليقظان الثقافية، القرارة غرداية- الجزائر، ع: 17، 1927/01/21م.
- (17) - محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ج: 05، ص: 210.
- (18) - عبد الحميد محمد بن باديس، آثَارُ ابْنِ بَادِيس، تح: عمار طالبي، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر 1388هـ/ 1968م، ط: 01، ج: 04، ص: 20.
- (19) - إبراهيم أبو اليقظان، جريدة البُستان، نُسخ مصوّرة، جمعية التراث، القرارة، غرداية- الجزائر، ع: 1 1933/04/27م.
- (20) - محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ج: 02، ص: 126.
- (21) - إبراهيم أبو اليقظان، جريدة وادي ميزاب، نشر مؤسسة الشيخ أبي اليقظان الثقافية، القرارة غرداية- الجزائر، ع: 115، 1929/01/04م.
- (22) - عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق، ج: 02، ص: 203.
- (23) - عبد الحميد بن باديس، مجلة الشهاب، ج: 7، ع: 13، 1356هـ/ 1937م، ص: 304.
- (24) - محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ج: 04، ص: 378.
- (25) - نفسه، ج: 05، ص: 171.
- (26) - إبراهيم أبو اليقظان، مرجع سابق، ع: 63، 1927/12/30م.
- (27) - عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق، ج: 02، ص: 157.
- (28) - محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ج: 01، ص: 52.
- (29) - إبراهيم أبو اليقظان، جريدة الأُمّة، ع: 157، 1938/01/25م، ص: 04.
- (30) - عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق، ج: 01، ص: 285.